الحاشية العصرية

على

شرح شذور الذهب

صنعها

د. عبد الكريم محمد الاسعد

الجزء الأول

المقـــدّمة

ابن هشـام الأنصاري المصـري المتوفى سنـة ٧٦١هـ غنيّ عن التعـريف، فهـو نحويّ زمـانه وسيبـويه أوانه بلا منازع، وشرح شـذور الذهب واحدٌ من مـصنَّفاته الحـسنة، وهو موجـز أشدّ الإيجـاز إذا قيس بطـائفة كـبيـرة من كتـبه، لكنّه غـزير الشـواهد من كلّ لون، فـالآيات القـرآنية والأحـاديث الشـريفـة والأمثـال السـائرة والأشعـار والأرجاز تتزاحم فيه تزاحماً قلّ نظيره في مثله، حتى ليصحّ القول فيه إنّه كتاب شواهد، وهو دقـيق العبارة لطيف الإشـارة، اختـار له صاحبـه متناً منثوراً أقام عليه بناء الشّرح، وأرسى أركـان هذا على دعائم من ذاك، ونَهَجَ في صناعتـهما نَهْجَ المتون والشـروح الذي ظهر في ذلك الزمـان، ثم راج وساد – مع ما ظهـر بعد ذلك من الحواشي والتقريرات – في عصور العثمانيين فيما بعد.

ومتن شـذور الذهب وشرحـه يعلّمان النحـو ويدرّبان على الفهم فـي آن واحد، فتحصـيل ما يحويانه من مسائل الفنّ وفروعـه تحصيلاً عميـقاً يجعل من المحصِّل نحويّاً جـيّداً، والتمـرّس بأسلوبهمـا العلميّ الصعـب يجعل الدارس مـجيداً لتـحكيك الألفاظ، فاهماً للرّموز، مدركاً لما وراء العبارات، مجادلاً قويّ الحجة شديد العارضة.

ولا ينبغي أن يتبـادر إلى الذهن أنَّ الكتاب قد خلا من سـماحة الأسلوب الأدبيّ الذي لا وعورة فـيه ولا خشونة تعـتريه، كما خـلا منها فيمـا بعد الكثير من مـتون المتأخرين وشروحهم وحواشيهم وتقـريراتهم ولا سيّما ما كان منها للأعاجم أو على طريقتهم مـثل الإظهار للبركويّ وشرح المـلاّ جامي على الكافية، فقـد كان في شرح الشذور الكثـير من هذا الأسلوب ومردّ الأمـر فيه إلى أنّ ابن هشام كـان إلى جانب كونه عـالماً نحويّاً مرمـوقاً يشار إليـه بالبنان عربيّاً صـاحبَ ذوق أدبيّ وحسّ لغوي حتى قيل من أجل ذلك إنّه قد أدّب في مصنّفـاته النحو، وشاع هذا القول وذاع وملأ الأسماع.

ولـمّا رأيت جمهـرة أساتذة العربية في الجـامعات قد تواضعت على اخـتيار هذا الكتاب، ووضـعته بركنيه بين أيدي الطلاب، وآثـرته على غيره من سائر كـتب النحو، قمت بعمل هذه الحاشية عليه، وضمّنتـها إعراب الصعب وتوجيه المنتخب من الشواهد الشعرية فيه، وقد اقتصرت فيما تناولته من هذه الشواهد على ما شعرت بحاجته إلى الإتيان بمتروك، أو توضيح غـامض، أو تفصيل موجز، أو نسبة إلى قـائل، أو تفسير لفظ، أو إيضاح مقصود، أو بيان مناسبه، أو نحو ذلك من الأمور، وانصرفت عن أكثر شواهد الكتاب الشعرية لأنّها خُدِمَتْ كثيراً فيه وفي غيره من كتب النحو، وتعرّض لها بالشرح والإعراب وبيان الشاهد وغير ذلك كثير من القدماء والمتأخرين والمحدثين في مصنّفـاتهم وبحوثهم وتعليـقاتهم وفـهارسهـم، ممّا يجعل تكرار القول فـيهـا أمراً لا مسوّغ له وعملاً غير مفيد.

أمّا شواهد الكتاب النثـرية من أمثال العرب وكلامهم وأحـاديث الرسول، وكذلك الشواهد القرآنية، فإنّها جميعاً لم تسبق خدمتها – فيما أعلم – بغير ما كان من تعليق موجـز في حاشيـتين معروفـتين للشذور على أجزاء من هذه الشـواهد بعضـهـا مهمّ وبعضـها ليس كذلك، لهذا انصبّ اهتمامي عليها أكثر من غيرها، وحرصت على إيفائها حقّها من التفصيل والتوضيح حتى تصبح فيهـما كقسيمتها الشواهد الشعرية، فأبَنْتُ المراد منها، وكـشفت أسـتار الغمـوض عنها، وأظهـرت وجه الشاهد فـيهـا، وأعربت عسيرها، ووجّهت ما دعت الحاجة إلى توجيهه من مشكلها، وكشفت عن وجه الحقيقة فيـه، وعرضت لمخـتلف القراءات في الآي علـى تفاوت درجاتـها، وخرّجت الـشواهد القرآنيـة على قراءاتها،وأظـهرت ما في وجـوه إعراب بعضـها من تنوّع فرضـه تعدّد القراءات فيـها، وقد كان هذا كلّه ممّا يصعب على الشّادين في درس النحـو تتبّعه في مظانّه المتفرقة، ويعسر عليهم الوصول إليه وتجميع ما تفرّق منه والربط بين أجزائه.

كذلك نالت المسائل الصعبة والأدلّة العويصـة والعبارات الغامضة حظّها الواجب من العناية، فكان لهـا نصيب ظاهر من التفـسير والتـحليل والإيضـاح، إذ عـمدتُ إلى إلانَتهـا وتسـهيلهـا وتمهيدها وإزالة وعـورتها حتـى بدت سَلِسَةً سهلة المأخذ يسـيرة

التناول واضحة المنطوق دانية المفهوم. هذا بالإضافة إلى ما تضمّنته الحاشية من «فوائد» متناثرة هنا وهناك في تضاعيف البحوث دعت إليها الحاجة أو أوحت بها الملابسات.

لكنّه سيظهر للمطالع أنّ بعض الشواهد والمسائل لم أتعرّض له ألبتّة، وأنّ بعضها الآخر لم أفصّل القول فيه ولم أضف إليه الكثير، وقد يرى أنّ هذا وذاك يدخلان في باب التقصير، والحقّ أنني لم أفعل في الأولى لأنّ تلك الشواهد والمسائل من السهولة بحيث لا تحتاج إلى قول فيها، أو لأنّ المصنّف «ابن هشام صاحب المتن والشرح» أو المعلّق «الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد الذي سمّى تعليقاته: منتهى الأرب بتحقيق شرح شذور الذهب» قد وفّياها حقّها كاملاً حتى لم يبق فيها زيادة لمستزيد، ولم أفعل في الثانية لأنهما قد عالجا اللبَّ، وحقّقا بما صَنَعَا الغرض الرئيس، ولم تبق إلاّ إضافات يسيرة قمت بزيادتها إكمالاً للصورة واستيفاء للتفاصيل.

ولقد اخترت نمط الحواشي، إحياءً لما اندرس من أشكال صناعة الكتب، وهي الأشكال التي تميّزت – على ما هو معروف – بعرض المعلومات الكثيرة المتنوعة، ولم تلتزم بالتقيّد بما كان من هذه المعلومات في صلب الموضوع فحسب كما تقضي بذلك مناهج التأليف الحديثة، وحسبي فيما فعلت اقتناعي بجدواه وإيماني بفائدته، لهذا حرصت على العودة إلى الفطرة المنطلقة والسجيّة العفوية، وعلى ترك الالتزام بمنهج مقيّد، وعلى عدم الوقوف عند حدود معيّنة، فحشدت في حاشيتي كلَّ ما رأيته مفيداً، حتى لو مَتَّ لما أنا بصدده بأدنى ملابسة، ممّا جعلها تبدوفي بعض الأمكنة كأنّها بحوث مهوّشة تبعث على الاستغراب وربّما الانتقاد، ولقد فعلت ذلك إيماناً منّي بوجوب تعميم الفائدة وجمع كلّ ما يتعلّق بما أبحثه من المسائل والقضايا في مكان واحد وبغزارة لا يعوقها إطار يقوم عليه منهج حديث صارم في التصنيف يعيب الخروج عن الموضوع كما يقولون، ويسفّه الاستطراد فيه إلى مختلف ألوان المعارف والعلوم، ويرى أنّ هذا ينافي الاختصاص الواجب ويجاوز الحدود التي لا يجوز تجاوزها.

بيد أنّي حرصت في الوقت نفسه كلّ الحرص على تخليص حاشيتي من الشوائب التي عيب بها كثير من الحواشي بأخَرَة، فاطّرحت المعلومات النافرة، ونبذت الأحاديث المقحمة، وأشحت عن الأساليب التي لا طائل من وراء غموضها وخشونتها، وأضفيت عليها ملامح الحداثة، ومن ثَمَّ سمّيتها «الحاشية العصرية». ثم إنّي أنِستُ بوضع أجزاء من هذه الحاشية بين يدي معالي الأستاذ الدكتور عبد العزيز الخويطر وزير المعارف، وهذه فرصة طيبة لأكشف النقاب عن أنّ لمعاليه في الأساس اشتغالاً بالصرف والنحو ونحوهما من علوم الآلة، فقد قَضَى شطراً ممتداً من حياته الدراسية الجامعية في تحصيلها بجامعة القاهرة في كلية دار العلوم العريقة في درس العربية، وأنّ الأمر ليس مقصوراً على علم التاريخ الذي تخصّص فيه ببريطانيا بعد ذلك، وقام بإلقاء المحاضرات في موضوعاته في كلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض إبّان تقلّده مسؤولية هذه الجامعة في وقت مبكّر، وخلّف في مباحثه طائفة طيّبة من الآثار، حتى استقرّ لدى قرّائه وعارفيه أنّه مؤرّخ ليس غير.

ولقد أثلج صدري ما سمعته مشافهةً واطّلعت عليه كتابةً من الملاحظات الحسنة والنقود الجيّدة لما تمّ اطلاع معاليه عليه ودراسته له من أبواب هذه الحاشية، لذلك هَمَمْتُ أن أعرض عليه سائر محتوياتها باباً باباً، ومسألةً مسألةً، ووددت أن لو أتدارس معه ملاحظاته عليها ونقوده لها، لكنّ تكليفه المفاجئ بأعباء وزارة التعليم العالي أيضاً أوجب عليّ التوقّف عمّا كنت أهمّ به وحال بيني وبين تحقيق هذه الرغبة، إذ جعلني أشعر بالحرج من الاثقال عليه واختلاس أوقات راحته على قلّتها، ولا سيّما أنّه لم يكن ليكتفي بالاطلاع العام السريع ولم يكن يقبل بغير ما عرف عنه عند الخاصة والعامة وأثنى به عليه المنصفون من الفحص الدقيق والتحرّي الشديد ونبذ المجاملة فيما يأخذ أو يذر من الشؤون العلمية وغير العلمية.

على أنّي مازلت وسأبقى أذكر بالثناء والامتنان والتقدير كلّ ما تفضّل بإبدائه في الكثير من قضايا هذه الحاشية سواء ما كان من ذلك في المنهج أو المحتوى أو الأسلوب، ولن يغرب عن بالي أو يغيب عن ذهني المتعة العقلية التي كنت أشعر بها من النقاش الخصب الطويل الذي كان يدور بيني وبين معاليه في طائفة كبيرة من

أمورها فكنت آخذ ببعض ما يرى وأستفيد من وجهة نظره في مواطن أخرى ، ممّا جعل مداولاتنا مدارسات علمية بحقّ نتناقش فيها ونحتكم إلى المصادر التي تزخر بها مكتبته العامرة حين يشجر الخلاف ويستحكم الجدل وتتضح الحاجة إلى اليقين.

وقد رتبت أبواب حاشيتي تبعاً لأبواب الشرح المحشّى عليه، وهو ترتيب متميّز خالف فيه ابن هشام ما هو سائد مشهور في ترتيب جمهرة كتب النحو لأبوابها، فقد جمع بين المرفوعات في باب واحد، فكان اسم كان مثلاً إلى جانب خبر إنّ، وجمع أيضاً بين المنصوبات في باب آخر فكان خبر كان إلى جانب اسم إنّ، وجمع كذلك بين المجرورات بالحرف والإضافة والتبعيّة في باب ثالث، وبين المجزومات بالأدوات المختلفة في باب مستقلّ رابع، كما عقد قبل هذه الأبواب أبواباً متفرقة كباب المثنى والملحق به وباب جمع المذكر السالم والملحق به وباب ما جمع بألف وتاء وما ألحق به وغير ذلك من الأبواب، وختم كتابه بأبواب التوابع وغيرها، ويمكن ملاحظة هذا كلّه من الاطلاع على ثبت الموضوعات.

وقد ذكرت في فاتحة كلّ باب اسمه، وجاء تسلسل عناوين الأبواب على نحو ليس ببعيد جداً عمّا جاء من تسلسها في مسرد البحوث في الطبعة العاشرة التي حقّقها الشيخ محمد محي الدين عبد الحمد رحمه اللّه في سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م، فقد خالفته بإجراء قدر ليس بقليل من التعديل والتبديل في أسماء بعض الأبواب وفي ترتيبها مع التزامي التام بتسمية المصنّف ابن هشام للأبواب وترتيبه لها سواء في المتن أو في الشرح، وكنت أورد نصّ المتن ثم نصّ الشرح وأردفهما بتعليقاتي في الحاشية وذلك لتسهيل المراجعة وليجد القارئ بغيته كاملة في مظانّها بيسر، أما تعليقات المحقّق الشيخ محي الدين فقد حذفتها من حاشيتي ولم أنقل منها إلاّ ما اقتضت الضرورة نقله ممّا احتجت لنقده أو توضيحه أو تصحيحه أو إكماله أو نحو ذلك تخفّفاً من أن تصبح حاشيتي لو سردت تعليقاته إلى جانب المتن والشرح طويلة ثقيلة مملّة ، وتفادياً لتكرار لا داعي له، ومن أراد أن يطالع تعليقات المحقق فليرجع إليها في الطبعة التي أشرت إليها ونقلت المتن والشرح منها.

وأخيراً فإنّي أرجو أن يجد الأساتذة – إن شاء اللّه – في هذه الحاشية بغيتهم، وأن يحصّل الطلاب منها مرادهم وفق قدراتهم ومستوياتهم المتفاوتة، فقد صنّفتها على النحو الذي فصّلت، وجمعت فيها كلّ ما يمكن أن يخدم الجميع، فالمعلّم ، وكذلك المتعلّم المتفوّق ، يستغني كلاهما بما اجتمع فيها من المعلومات القاصية عن الرجوع إلى الأمّات المتفرقة فيصل كلٌّ منهما إلى مطلبه بسرعة وسهولة، والشّادي في درس النحو ينهل من معينها المعارف الدانية التي يحتاجها، ويستعين بهذه المعارف على فكّ مغاليق عبارات الكتاب وفهم مرامي إشاراته وتحصيل معاني ألفاظه وإزالة غموض أساليبه بقدر الإمكان تاركاً إيضاح ما وراء ذلك ممّا يعسر عليه إلى أستاذه.

ولست أزعم لعملي الكمال والإحاطة، فهذان لا يصحّ في العقول السليمة ولا يستقيم في الأذهان المستقيمة أن يدّعيَهما الإنسانُ المنسوب إلى النسيان، لهذا فإنّي أضع مصنَّفي هذا بين أيدي الأساتذة الأجلاّء والزملاء الفضلاء الذين خلص لهم من تجاربهم فكر ثاقب ونظر سديد جعلهم أهلاً للتقويم الرشيد، أضعه بين أيديهم مطمئناً، وأقوم بذلك واثقاً، تحفزني إلى ما أفعل بواعث متعدّدة، فهم لابدّ أن يجدوا عثرة في مثل هذه الحاشية الطويلة يقيلونني منها، أو سهواً يذكّرونني به، أو سقطة يرفعون عنّي إصرها، أو هَنَةً يصوّبونها لي فيدفعون عن كلامي وزرها، أو نقصاً يستدركون به عليّ فيزيلون عيبه، أو وهناً يُخْلُونَ الحديث من أثره، أو منهجاً للتأليف لا يُرْتَضَى فيوصون باطّراحه، أو نسقاً في التصنيف لا يستحبُّ فيدعون إلى تركه. إنّهم إن يفعلوا أكن لهم من الشاكرين الحامدين المقدّرين، لأنّهم بذلك سيُضْفُون على حاشيتي هذه شرفاً وقدراً لاشكّ فيهما، يؤصّلهما نظرهم فيها نظر الناقد المتأنّي الحصيف، والمحكّم المدقّق المنصف، ولا أشكّ لحظة في أنّهم فيما يبدونه ممّا قد نتّفق فيه أو نختلف عليه إنّما يصدرون عن كفاءة واقتدار وحنكة ودراية وأمانة وإخلاص وإنصاف. لا تثريب على أحد في العلم، ونحن جميعاً مدرسين ودارسين ننشد الحقيقة بصدق، وسنبقى خدماً للمعرفة حين نُلْقي وحن نتلَقَّى.

ولا يفوتني في النهاية أن أشكر صاحب دار الشواف المعروفة الأخ الفاضل الدكتور عبد المعين الشوّاف الذي نهض مشكوراً بطباعة هذا الكتاب ونشره وتوزيعه، وتحمّل عبء ذلك كلّه، وأحاطني أنا وكتابي باهتمامه وعنايته ورعايته، ومثل هذا الشكر أزجيه بامتنان للأخ الكريم الأستاذ زاهر الشوّاف مدير الدار لصدقه ودماثة خلقه ورقة حاشيته ونشاطه «الديناميكي»، جزاهما اللّه كلّ خير، واللّه من وراء القصد.

المؤلف

الرياض في: ٤ / ٣ / ١٤١٥هـ
١٠ / ٨ / ١٩٩٤م

خطبة «المحقّق» مؤلف «منتهى الأرب»

الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد

الحمد للّه على نعمائه، والشكر له على آلائه، وصلى اللّه على سيدنا محمد واسطة عِقْدِ أنبيائه، وعلى آله وصحبه وأوليائه، أحمده سبحانه حمداً يكون سبباً مُدْنياً من رضاه، وأشكره شكراً يكون مُقرِّباً من الفوز بمغفرته.

وبعد، فهذا كتاب «شذور الذهب في معرفة كلام العرب» وشرحه، وهما من تصانيف العلاّمة المحقّق فخر العربية وحامل لواء علمائها أفضل مَنْ صَنَّفَ من رجالات القرن الثامن الهجري في قواعد العربية والتطبيق عليها جمال الدين بن هشام الأنصاري، وهذا الكتاب وشرحه صِنْو كتابه «قطر الندى وبلّ الصَّدى» وشرحه، صنّفهما ابن هشام للذين شَدَوْا من علم العربية شيئاً يكون كالمقدّمة لقراءتهما، وكنّا ندرسهما معاً في الجامع الأزهر في فرقة دراسية واحدة وفي عام واحد، وكنّا نستوعبهما قراءة ودرساً، ولم نجد في ذلك مشقة ولا عنتاً.

وللكتابين في نفسي ذكرياتٌ لن يأتيَ عليها الزمان، فقد تلقيتهما معاً على شيخ واحد، وكان رحمه اللّه تعالى مثالاً للجِدّ والإخلاص في التحصيل والإفهام وبَعْث الهمة على الاقتداء به، فكان ذلك أحد البواعث على محبَّة الكتابين وتحصيلهما، ثم كان أشدّ البواعث إلى الكتابة عليهما وبعثهما. وقد كان مما جرى به القَدَر أن رأت مشيخة الجامع الأزهر في نظامها الجديد – في سنة ١٩٣٥ الميلادية – تدريس هذين الكتابين لفرقتين دراسيتين، فجعلت «قطر الندى» وشَرْحَهُ للسنة الثالثة الابتدائية و«شذور الذهب» للسنة الرابعة الابتدائية، وقد قدّمْتُ لقراء العربية عامة ولأبنائي وإخواني من طلبة الأزهر وأساتذته شرحاً سَهْلَ العبارة فائق التحقيق على شرح قطر الندى، فكان لزاماً عليَّ أن أعزّزه بشرح على «شذور الذهب» ليكون له أخاً يدانيه في السهولة والتحقيق، ويقرّب ما أغْرَبَ به ابن هشام ممّا أودعه فيه من

عويص المسائل التي ترجع إلى الفقه في العربية والدقة في معرفة أسرارها. وقد سمّيت هذا الشرح «منتهى الأرب بتحقيق شرح شذور الذهب» راجياً أن يتطابق الاسم والمسمَّى، وأن يكون ما أودعتُهُ فيه من ذخائر العربية مُقْنعاً لراغبي البحث، سادّاً لِنَهْمَةِ المولَعين بالتفقّه في الحقائق العلمية. فإن أكن قد أصبتُ الذي أردتُ فهذا توفيق اللّه تعالى وتيسيره، وإن تكن الأخرى فلا يكلّف اللّه نفساً إلاّ وسعها، وبحسبي خلوص النية للّه تعالى ولرسوله ﴿ربِّ هبْ لي من لدنْكَ رحمةً إنَّكَ أنت الوهَّاب﴾.

الحاشية العصرية

* **الآلاء**: النِّعَم، وآلاء جمعٌ مفرده إلىً أو ألاً بكسر الهمزة وفتحها، وأصل الهمزة الأخيرة في الجمع واو لأنّ فعله ألاَ يألُو من باب عدا يعدو، وقد تطرّفت الواو في الجمع «آلاَوْ» بعد ألف زائدة فقلبت همزة فأصبح آلاء، ويكتب بعضهم المفرد بالألف المقصورة أي «إلىً» – كما يكتب بالألف المقصورة المفرد معىً الذي جمعه أمعاء – وذلك لكسر همزته في لغة، وبعضهم يكتبه بالألف الممدودة «ألاً» لفتح الهمزة في لغة أخرى. وآلاء جمع تكسير ليس فيه قلب مكاني، وهومصروف لأنّه على وزن أفعال فهو كأحادٍ وآجالٍ جمع أحدٍ وأجلٍ، وأصله أَأْلاء فالتقت همزتان ثانيتهما ساكنة والأولى مفتوحة فقلبت الثانية مدًا من جنس الأولى استثقالاً لاجتماع همزتين.

وقيل إنّ آلاء اسم جمع على وزن لَفْعَاء وإنّه ممنوع من الصرف لألف التأنيث الممدودة وإنّ فيه قلباً مكانياً إذ أصله «ألْأاء» على وزن فعلاء، اجتمعت في آخره همزتان بينهما ألف تعدّ كأنّها غير موجودة لأنها مانع غير حصين ممّا جعل اجتماع الهمزتين في آخر الكلمة ثقيلاً، لذلك قدّمت الهمزة التي هي لام الكلمة ووضعت قبل فاء الكلمة فأصبحت «أألاء» على وزن لَفْعَاء ثم قلبت الهمزة الثانية الساكنة مدّة من جنس حركة الهمزة الأولى فصارت آلاء. وعندي أنّ هذا القول بجميع تفاصيله ضعيف، وأنّ القائلين به ربّما قاسوا آلاء على أشياء التي يوجد بها قلب مكاني، وفي هذا القياس ما فيه لما بين «شيء» المفرد، و«إلًى» أو «ألاً» المفرد من الاختلاف، فهذا

اسم مقصور معتلّ الآخر بالألف، وليس «شيء» مثله فهو صحيح مهموز، ثم إنّ بعض الصرفيّين قالوا إنّ أصل «شيء» هو «شَيِّئ» على وزن فَيْعِل.

ومن المناسب في هذا السياق أن نتحدث عن القلب المكاني فنقول إنّه نقل الحرف من موطنه في الكلمة إلى مكان آخر فيها، وهو ضرب من التوسّع في اللغة، وأكثره سماعي ويكثر سماعه في الفعل المعتلّ أو المهموز ويقلّ سماعه في غيرهما من الأفعال كامضَحَلَّ واكرهَفَّ من اضمَحَلَّ واكْفَهَرَّ اللذين مصدرهما الاضمحلال والاكفهرار، ولم يسمع للفعل المقلوب مصدر من لفظه فلم يسمع مثلاً في هذين الفعلين المقلوبين امضِحْلال ولا اكرِهْفَاف، وكما يكون القلب المكاني في الأفعال يكون في الأسماء نحو آبار بمدّ الهمزة فإنّ أصله أَبْآر على وزن أفعال فقدمت الهمزة التي هي عين الكلمة على الباء التي هي فاء الكلمة فأصبحت أَأْبار على وزن أعفال فاجتمع فيها همزتان متجاورتان ثانيتهما ساكنة فقلبت الثانية الساكنة مدّة من جنس حركة الأولى.

ويرى بعض الباحثين أنّ القلب المكاني ليس من ضروب التوسّع في اللغة لأنّه لا يضيف إلى أصولها كلمات جديدة، بل هو نوع من مراعاة التناسب الصوتي بين الحروف في الكلمة الواحدة، ومن أجل التناسب يحدث التقديم والتأخير كما حدث مثلاً في امضحَلَّ واكرهَفَّ ونحوهما، وفي آبار ونحوه و إذ لا يعدّ ما فيها قلباً بل هو مجرّد نقل أصاب بعض حروف الكلمات في بعض اللهجات العربية دون بعض مع إبقاء الحروف المزالة من أماكنها بعينها كما حدث في اضمحلَّ واكفهرّ، أو مع تغيير الحرف المزال من مكانه إلى حرف آخر كما غيّرت الهمزة مثلاً في آبار إلى ألف وكما غيّرت الواو في قِسِيّ إلى ياء.

* **شذور**: جمع تكسير مفرده شَذْره، وتجمع شَذْرة بألف وتاء أيضاً فيقال شَذَرات، وشذور الذهب: قطع من الذهب تُلْقَطُ من معدنه.

ترجمة ابن هشام

بقلم/ محمد محيي الدين عبد الحميد

صاحب كتاب «شذور الذهب في معرفة كلام العرب» وشرحه، هو الإمام الذي فاق أقرانه، وشأى مَنْ تقدّمه، وأعيا مَنْ يأتي بعده، الذي لا يُشَقُّ غباره في سَعَةِ الاطلاع وحسن العبارة وجمال التعليل الصالح الورع أبو محمد عبد اللّه جمال الدين ابن يوسف بن أحمد بن عبد اللّه بن هشام الأنصاري المصري.

ولد في القاهرة في ذي القَعدة عام ثمانٍ وسبعمائة من الهجرة (عام ١٣٠٩ من الميلاد) ولزم الشهاب عبد اللطيف بن المرحل، وتلا على ابن السّراج، وسمع على أبي حيَّان ديوان زهير بن أبي سُلْمَى المزني، ولم يلازمه ولا قرأ عليه غيرَه، وحضر دروس التاج التبريزي، وقرأ على التاج الفاكهاني شَرْحَ الإشارة له إلاَّ الورقة الأخيرة، وحدّث عن ابن جماعة بالشاطبية، وتفقّه على مذهب الشافعي، ثم تحنبل فحفظ مختصر الخرقي قبيل وفاته.

وتخرّج به جماعة من أهل مصر وغيرهم، وتصدّر لنفع الطالبين، وانفرد بالفوائد الغريبة والمباحث الدقيقة والاستدراكات العجيبة والتحقيق البارع والاطلاع المفرد والاقتدار على التصرّف في الكلام، وكانت له ملكة يتمكّن بها من التعبير عن مقصوده بما يريد مُسْهَباً وموجزاً، وكان مع ذلك كلّه متواضعاً بَرّاً دمْثَ الخلق شديد الشفقة رقيق القلب.

قال عنه ابن خلدون: «مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنّه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه»، وقال عنه مرّة أخرى: «إنّ ابن هشام على علمٍ جمٍّ يشهد بعلوّ قدره في صناعة النحو، وكان ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنى واتبعوا مصطلح تعليمه فأتى من ذلك بشيء عجيب دالٍّ على قوة ملكته واطلاعه».

ولابن هشام مصنّفات كثيرة كلّها نافع مفيد تلوح منه أمارات التحقيق وطول الباع، وتطالِعُكَ من روحه علائم الإخلاص والرغبة عن الشهرة وذيوع الصّيت، ونحن نذكر لك من ذلك ما اطلعنا عليه أو بَلَغَنا علمه مرتباً على حروف المعجم، وندلّك على مكان وجوده إن علمنا أنّه موجود أو نذكر لك الذي حدَّثَ به إن لم نعلم وجوده، وهاكها:

* الإعراب عن قواعد الإعراب، طبع في الآستانة وفي مصر وشرحه الشيخ خالد الأزهري.

* الألغاز، وهو كتاب في مسائل نحوية صنّفه لخزانة السلطان الملك الكامل، طبع في مصر وفي الآستانة.

* أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، طبع مراراً وشرحه الشيخ خالد، ولنا عليه ثلاثة شروح: أوّلها شرح وجيز مطبوع، وثانٍ متوسط طبع أيضاً، وثالث مبسوط لم يطبع.

* التذكرة، ذكر السيوطي أنّه كتاب في خمسة عشر مجلداً، ولم نطّلع على شيء منه.

* التحصيل والتفصيل لكتاب التذييل والتكميل، ذكر السيوطي أنّه عدّة مجلدات.

* الجامع الصغير، ذكره السيوطي ويوجد في مكتبة باريس.

* الجامع الكبير، ذكره السيوطي.

* رسالة في انتصاب «لغةً» و «فضلاً» وإعراب «خلافاً» و «أيضاً» و«هلمّ جرّا» وهي موجودة في دار الكتب المصرية وفي مكتبة برلين وليدن وهي برمّتها في كتاب «الأشباه والنظائر النحوية» للسيوطي المطبوع في الهند.

* رسالة في استعمال المنادى في تسع آيات من القرآن الكريم، موجودة في مكتبة برلين.

* رَفْع الخَصَاصة عن قرّاء الخلاصة، ذكره السيوطي وذكر أنّه يقع في أربعة مجلدات.

* الروضة الأدبية في شواهد علوم العربية، يوجد بمكتبة برلين وهو شرح شواهد كتاب «اللُّمعَ» لابن جني.

* شذور الذهب في معرفة كلام العرب، طبع مراراً ولنا عليه شرح مطبوع.

* شرح البردة، ذكره السيوطي، وربّما كان هو شرح «بانت سعاد» الآتي.

* شرح شذورالذهب المتقدّم، طبع مراراً ولنا عليه شرح طبع مراراً وهو هذا الذي نقدّمه اليوم.

* شرح الشواهد الصغرى، ذكره السيوطي أيضاً، ولا ندري أهو كتاب الروضة السابق أم هو كتاب آخر؟

* شرح الشواهد الكبرى، ذكره السيوطي أيضاً، ولا ندري حقيقة حاله.

* شرح قصيدة «بانت سعاد» طبع مراراً.

* شرح القصيدة اللّغزيّة في المسائل النحوية، يوجد في مكتبة ليدن.

* شرح قطر النّدى وبلّ الصّدى، طبع مراراً، ولنا عليه شرح طبع مراراً أيضاً.

* شرح اللمحة لأبي حيان، ذكره السيوطي.

* عمدة الطالب في تحقيق صرف ابن الحاجب، ذكره السيوطي وذكر أنّه في مجلدين.

* فَوْحُ الشَّذا في مسألة كذا، وهو شرح لكتاب «الشذا في مسألة كذا» تصنيف أبي حيان، يوجد في ضمن كتاب «الأشباه والنظائر النحوية» للسيوطي.

* قطر النّدى وبلّ الصّدى، طبع مراراً وهو متن الشرح السابق ذكره، ولنا عليه شرح مطبوع.

* القواعد الصغرى، ذكره السيوطي.

* القواعد الكبرى، ذكره السيوطي.

* مختصر الانتصاف من الكشّاف، وهو اختصار لكتاب صنّفه ابن المنير في الردّ على آراء المعتزلة التي ذكرها الزمخشري في تفسير الكشّاف، واسم كتاب ابن المنير «الانتصاف من الكشّاف» وكتاب ابن هشام يوجد في مكتبة برلين ومكتبة الأزهر.

* المسائل السَّفَرِيّة في النحو، ذكره السيوطي.

* مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، طبع في طهران والقاهرة مراراً، وعليه شروح كثيرة طبع منها عددٌ وافٍ، ولنا عليه شرح مبسوط، نسأل اللّه أن يعين على طبعه.

* موقد الأذهان وموقظ الوسنان، تعرّض فيه لكثير من مشكلات النحو، يوجد في دار الكتب المصرية، ومكتبتي برلين وباريس.

وتوفى رحمه اللّه تعالى بالقاهرة في ليلة الجمعة، وقيل ليلة الخميس الخامس من ذي القَعدة سنة إحدى وستين وسبعمائة من الهجرة (سنة ١٣٦٠ من الميلاد)، وقد ذكر حاجي خليفة في غير موضع من كتابه «كشف الظنون» أنّه توفي في عام اثنين وستّين وسبعمائة من الهجرة وهو ما لم أجده لأحد سواه، رضي اللّه تعالى عنه وأرضاه.

الحاشية العصرية

* ينبغي للقارئ أن يتنبَّه إلى أنّ الشيخ محمد محي الدين قد كتب هذه الترجمة في عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م، أي قبل زمن طويل، وذلك طبقاً لما كان متاحاً له آنذاك من المعلومات، ومن المؤكد أنّ كثيراً من آثار ابن هشام التي ذكرها قد حقّق أو طبع أو عثر عليه أو اتّضح شأنه في خلال الفترة الواقعة بعد هذا التاريخ.

* شَأى يَشْؤُوا القومَ شَأواً: سبقهم، ويقال فلان بعيد الشأو أي عالي الهمة.

خطبة ابن هشام صاحب الشذور

قال الشيخ الإمام العالم العلاّمة العامل الجامع لأشتات الفضائل وحيد دهره وفريد عصره صدر المحققين وبركة المسلمين جمالُ الدين أبو محمدٍ عبدُ اللَّه بنُ الشيخِ جمالِ الدينِ يوسفَ بنِ أحمدَ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ هشامٍ الأنصاري تغمّده اللَّه برحمته وأسكنه فسيح جنّاته.

أوّل ما أقول: إنّي أحمد اللَّه العليَّ الأكرم، الذي عَلَّمَ بالقلم، عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم، ثم أُتْبِعُ ذلك بالصلاة والتسليم على المرسَل رحمة للعالمين وإماماً للمتقين وقدوة للعاملين محمدٍ النبيِّ الأميِّ والرسول العربي، وعلى آله الهادين وصحبه الرافعين لقواعد الدين.

وبعدُ: فهذا كتاب شرحْتُ به مختصري المسمَّى بـ «شذور الذهب في معرفة كلام العرب» تمّمت ، شواهده وجمعت به شوارده ومكّنت من اقتناص أوابده رائدَه، قصدتُ فيه إلى إيضاح العبارة لا إلى إخفاء الإشارة، وعمدت فيه إلى لفّ المباني والأقسام لا إلى نشر القواعد والأحكام، والتزمت فيه أنّني كلّما مررت ببيتٍ من شواهد الأصل ذكرت إعرابه، وكلّما أتيتُ على لفظ مستغرَب أردفته بما يزيل استغرابه، وكلّما أنهيت مسألة ختمتها بآية تتعلّق بها من أي التنزيل، وأتبعتها بما

تحتاج إليه من إعراب وتفسير وتأويل، وقصدي بذلك تدريب الطالب، وتعريفه السلوك إلى أمثال هذه المطالب، واللهَ تعالى أسأل أن ينفعني وإياكم بذلك إنّه قريب مجيب، وما توفيقي إلاّ باللّه عليه توكلت وإليه أنيب.

الحاشية العصرية

* من الواضح أنّ الفقرة السابقة على قول ابن هشام «أوّل ما أقول» هي من كتابة المحقّق محمد محي الدين توطئة لكلام ابن هشام نفسه الآتي بعدها مباشرة.

* الأوابد: الغرائب، يقال أَبَدَ الشاعرُ أُبُوداً أي استعمل كلاماً لا يُعرف معناه، وأوابد جمع آبِدَة وهي الشيء الغريب، ومنه أوابد الكلام أي غرائبه، ومنه أوابد الشِّعر وهو ما لا تُمَائِلُ جودته أو قوافيه الشاردة.

* لا يخفى ما في كلام ابن هشام في خطبته من وجوه البديع المتنوعة كالجناس والسّجع والمقابلة والإشارة إلى اللّف والنّشر وغير ذلك، وإيراد هذا والإكثار منه كان الطابع المميّز للأسلوب الذي درج عليه علماء ذلك الزمان وأدباؤه.

لغات الكلمة ثلاث ولها معنيان، وحدّ القول، وحدّ المفرد، و «كلاّ» في العربية على ثلاثة أوجه

المتن «لابن هشام»

* قلتُ: الكلمة قول مفرد.

الشرح «لابن هشام»

* وأقول: في الكلمة ثلاث لغات ولها معنيان، أمّا لغاتها فكلمة على وزن نَبِقَه وهي الفصحى ولغة أهل الحجاز وبها جاء التنزيل وجمعها كلم كنَبِق، وكلمة على وزن سِدْرة وكلمة على وزن تمرة وهما لغتا تميم وجمع الأولى كلم كسِدْر والثانية كلم كتَمْر، وكذلك كلّ ما كان على وزن فَعِل نحو كبد وكتف فإنّه يجوز فيه اللغات الثلاث فإن كان الوسط حرف حلق جاز فيه لغة رابعة وهي إتباع الأول للثاني في الكسر نحو فِخِذ وشهِد ، وأمّا معنياها فأحدهما اصطلاحي وهو ما ذكرت.

والمراد بالقول اللفظ الدالّ على معنى كرجل وفرس، بخلاف الخطّ مثلاً فإنّه وإن دلّ على معنى لكنّه ليس بلفظ، وبخلاف المهمل نحو ديز مقلوب زيد فإنّه وإن كان لفظاً لكنّه لا يدلّ على معنى فلا يسمّى شيء من ذلك ونحوه قولاً.

والمراد بالمفرد ما لا يدلّ جزؤه على جزء معناه كما مثّلنا من قولنا رجل وفرس، ألا ترى أنّ أجزاء كلّ منهما وهي حروفه الثلاثة إذا انفرد شيء منها لا يدلّ على شيء ممّا دلّت عليه جملته بخلاف قولنا غلامُ زيدٍ فإنّه مركّب لأنّ كلاً من جزءيه وهما غلام وزيد دالٌّ على جزء المعنى الذي دلّت عليه جملة «غلام زيد». والمعنى الثاني لغويّ وهو الجمل المفيدة، قال اللّه تعالى ﴿كلا إنّها كلمة هو قائلها﴾ إشارة إلى قول القائل: ﴿ربِّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت﴾. وكلاّ في العربية على ثلاثة أوجه: حرف ردع وزجر، وبمعنى حقاً، وبمعنى إي، فالأول كما في هذه الآية، أي: انتَهِ عن هذه المقالة فلا سبيل إلى الرجوع، والثاني نحو: ﴿كلاّ إنّ الإنسان ليَطْغَى﴾ أي حقّاً، إذ لم يتقدّم على ذلك ما يُزْجَرُ عنه، كذا قال قوم، وقد اعترض على ذلك بأن حقّاً تفتح «أنّ» بعدها، وكذلك أما التي بمعناها، فكذا ينبغي في كلاّ، والأوْلَى أن تفسَّر كلاّ في الآية بمعنى ألا التي يستفتح بها الكلام، وتلك تكسر بعدها إنّ نحو: ﴿ألا إنّ أولياء اللّه لا خوف عليهم﴾، والثالث قبل القسم نحو: ﴿كلاّ والقمر﴾، معناه إي والقمر، كذا قال النّضر بن شُمَيل وتبعه جماعة منهم ابن مالك، ولها معنى رابع،